# القسم الأول

## الخصائص الأساسية للتربية النبوية

وهي الخصائص الفريدة التي تبنى عليها غيرها ، ويتفرع عنها بقية الخصائص ، وهي :

**١ـ الاصطفاء والاختيار :**

تعتمد التربية النبوية على ثلاثة أركان ، وهي : المعلم والمنهاج والكتاب ، ويحتل المعلم أهم الأركان ، ويعتبر حجر الزاوية في التربية والتعليم والدعوة ، وهو أهم وسيلة تعليمية في تحقيق الأهداف والمبادىء التي يؤمن بها ، ويسعى للوصول إليها ، وتعلق عليه الآمال في التوعية والتوجيه والتقويم ، ويتوقف على كفاءته إعداد الجيل ، وتربية الأمة ، علمياً وسلوكياً ، كما يتوقف عليه إمكانية تطبيق المبادىء وتبليغ المعلومات التي تنشدها العقيدة ، أو يدعو إليها الدين الحنيف ، أو يحددها المنهاج .

والمعلم هو المصدر الإشعاعي للعلم ، والأداة الفعالة لاستعمال الوسائل التعليمية والطرق التربوية .

وتظهر أهمية المعلم في شخصيته وسلوكه وأثره ، وتتضافر عدة عوامل على نجاحه وتفوقه ، وبعض هذه العوامل فطري كالذكاء والاستعداد العقلي ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وحسن النطق ، وقوة الجسم ، وسماحة النفس ، وتوفر المواهب ، وبعضها مكتسب يخضع للتغيير ، ويقبل الزيادة ، وينمو بالممارسة كالنطق بالفصحى ، وسعة الثقافة ، والاطلاع المتنوع ، وحسن المعاملة ، والتسلح بالأخلاق ، وجودة العمل ، وإتقان البحث ، والإعداد الذي حققه ، والشهادة التي حازها .

وهذه الصفات المطلوبة تتوفر بالمعلم المتفوق عادة ، سواء ما كان منها فطرياً أو مكتسباً ، مع تفاوت النسبة من معلم إلى آخر ، وقد توفرت بأجمعها بالمعلم الأول ، وهو الرسول العربي المربي .

لكن رسول الله ﷺ امتاز على بقية المعلمين بصفة ذاتية ، وخصائص شخصية تتعلق بفطرته وتكوينه ، وتتصل بالمعهد الذي تخرج منه ، والجامعة التي درس بها ، والشهادة التي

حملها ، مما أكسبته ميزة فريدة تحتل المكان الأول في خصائص التربية النبوية ، وهي صفة الاصطفاء الرباني والاختيار الإلهي .

فالرسول ﷺ من النخبة الخيِّرة التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى من سائر خلقه ، فاصطفاهم من البشر جميعاً ، ثم اصطفاهم من شعبهم وقبيلتهم وعشيرتهم وأسرتهم ، فكانوا أفضل الناس ، في الفطرة والتكوين ، وهم الأنبياء والمرسلون ، وكانت عوامل النجاح الفطرية على أحسنها ، وبأعلى درجاتها ، من الذكاء والعقل والمواهب وغيرها ، وهذا ما بينه القرآن الكريم في عدة آيات ، فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : ٣٢] ، وقال عز وجل : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣٣ـ٣٤] ، وقال عن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ

ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص : ٤٥ـ٤٧] ، أي صفَّاهم الله عن شوائب النفوس ، وكدر الحظوظ ، وجعلهم خالصين لله ، وإنهم المختارون من أبناء جنسهم ، المنزهون عن النقص والشرور .

وهذا ما بيَّنه رسول الله ﷺ عن نفسه ، مُمْتناً بفضل الله تعالى ، فيما رواه مسلم والترمذي وأحمد ، عن واثلة بن الأسقع ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الله اصطفى كنانةَ من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » ، وروى الترمذي عن العباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال : « مَنْ أنا ؟ فقالوا : أنتَ رسول الله عليك السلام ، قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنَّ الله خلقَ الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلني في خيرهم فرقةً ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلةً ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً ، وخيرِهم نَفْساً » ، وفي رواية : « فأنا خيارٌ من خيارٍ من خيار »[1] ، وهنالك أحاديث كثيرة في

---

(١) فيض القدير ٢/ ٢١٠ ، الفتح الكبير ١/ ٣٢٣ .

هذا المعنى ، والاصطفاء هو الاختيار ، والصفوة من كل شيء خالصه وخياره ، وقوله : « فأنا خيرُهم نفساً » أي روحاً وذاتاً ، إذ جعلني الله نبياً ورسولاً وخاتماً للرسل ، وخيرُهم بيتاً ، أي أصلاً إذ جئت من طيب إلى طيب .

وهذا اصطفاء رباني ، واختيار من قبل رب العالمين ، لأحد خلقه ، ليكون واسطة بينه وبينهم في الوحي ، وليكون رسولاً من الخالق ، إلى المخلوقين ، بل ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، فهومن خير خلق الله أجمعين .

ولم يقف الأمر عند الاصطفاء ، بل شملت الرعاية الإلهية أن يربيه تربية خاصة ، ويُعِدُّه إعداداً قويماً ، ويؤدبه تأديباً رفيعاً ، ويؤهله تأهيلاً فريداً ، وهو القائل : « أدَّبَني ربِّي فأحسنَ تأديبي »[1] ، وبيَّن القرآن الكريم هذا التأهيل والرعاية ، فقال عز وجل : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه : ٣٩] ، وهذه الآية وردت في سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، ولكنها ليست خاصة به ، وإنما هي عامة لجميع الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله ، وصنعهم

---

(١) رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود .

على عينه ، وأهَّلَهم برعايته ، وتفسير الآية : أي ألقيت عليك محبة واقعة مني ، زرعتها في قلب من يراك ، ولذلك أحبك فرعون حين رآك ، « ولتصنع على عيني » أي ولتربى بين العدو على نظري بالحفظ والعناية ، « وعلى عيني » استعارة تمثيلية للحفظ والصون ، لأن المصون يجعل بمرأى ، وهذا بيان للمدرسة والمعهد الذي يتربى فيه الأنبياء ، ويتخرج منه الرسل ، ومنهم محمد ﷺ[1] .

وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ خاصّة : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ [الطور : ٤٨] ، قال ابن جرير الطبري : « أي بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين »[2] ، ونكتة جمع « العين » هنا هو المبالغة في الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم ، ولأن مكايد الكفار كثيرة ، ومشاق التكاليف ، وأفعال الطاعة عديدة ، فيحتاج كل منها إلى حارس وحرّاس[3] .

---

(١) انظر : تفسير القاسمي ١١/ ٤١٧٩ .
(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٧/ ٣٧ .
(٣) انظر : تفسير القاسمي ١٥/ ٥٥٥٠ .

وبعد الاصطفاء والاختيار والتأهيل ، تخرج رسول الله ﷺ من مدرسة الرعاية الإلهية ، والاصطفاء الرباني ، وانطلق من مهد النبوات ، ومعهد الرسالات ، ليكون رسولاً ومعلماً في آن واحد ، ويتشرف بحمل هذه الشهادة من رب العالمين .

والدليل على هذا ما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال : خَرَجَ رسول الله ﷺ ذات يومٍ من بعض حُجُرِه ، فدخل المسجدَ ، فإذا هو بحلقتين ، إحداهما : يقرؤون القرآن ، ويدْعون الله ، والأخرى : يتعلّمون ويُعلِّمون ، فقال النَّبي ﷺ : « كلٌّ على خير ، هؤلاء يقرؤون القرآن ، ويدْعُون الله ، فإن شاءَ أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلّمون ويُعلِّمون ، وإنَّما بُعثتُ معلِّماً ، فجلس معهم »[1] .

وكان عليه الصلاة والسلام مُعلِّماً ناجحاً ، ومربياً قديراً ، وتشهد له النتائج التي حققها ، والآثار التي تركها على أصحابه ، أفراداً ومجتمعين ، في حياته وبعد وفاته .

فمن ذلك ما رواه مسلم عن معاويةَ بن الحكم السُّلَمي

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٨٣ .

رضي الله عنه ، قال : بَيْنا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رجل من القوم ، فقلتُ : يرحمُكَ الله ، فرماني القومُ بأبصارهم ، فقلت : واثكْلَ أُمّياه ، ما شأنُكم تنظرون إليَّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يُصمِّتونني ، لكني سكتُّ ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ ، فبأبي هو وأمي ، ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ، فوالله ما كَهَرَني ( أي ما انتهرني ) ، ولا ضربَني ، ولا شتمني ، قال : « إنَّ هذه الصلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلام الناس ، إنَّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن »[1] الحديث ، قال النووي : « فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ، ورِفقه بالجاهل ، ورأفته بأمته ، وشفقته عليهم ، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل ، وحسن تعليمه ، واللطف به ، وتقريب الصواب إلى فهمه »[2] ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الله أمرني أن أُعلِّمكم مما علَّمني . . . »[3] .

---

(١) صحيح مسلم ٥/ ٢٠ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٢٠ .

(٣) هذا طرف من حديث رواه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً=

وشهد الله تعالى لرسوله ﷺ في اكتمال صفات المعلم والمربي ، فقال عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وقال تعالى ، مبيناً ما فطر الله به نبيه ، واصطفاه به ، ورباه عليه ، وحفظه به ، وما شرعه له في الدعوة والتعليم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

قال الحسن البصري : « هذا خلق محمد بعثه الله به »[١] ، ويقول رسول الله ﷺ : « إنَّ الله أمرني بمداراة الناس ، كما أمرني بإقامة الفرائض »[٢] .

ويسجل لنا القرآن الكريم شهادة أخرى لرسول الله ﷺ ، تجمعُ بين الاصطفاء والاختيار ، وبين الصفات التي يتمتع بها الرسول ، والمؤهلات التي يستحقها ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ

---

= ( الفتح الكبير ١/ ٣٢٥ ) .

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٤١٩ .

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس ، الفتح الكبير ١/ ٣٢٥ .

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١) عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة : ١٢٨ـ١٢٩] .

**٢ـ التوجيه القرآني للرسول في التربية :**

إن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً ، ولم يتركهم سُدى ، فابتعث لهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وكانت العناية الإلهية تحوط الرسل عامة ، ومحمداً خاصة ، من كل جانب ، فأنزل الله على رسوله ﷺ الكتاب والحكمة ، وكان رسول الله ﷺ يسير على منهج الوحي الإلهي في الدعوة والتربية ، والتعليم والوعظ .

ولم تقتصر الرعاية الإلهية على اصطفاء الرسول

---

(١) من أنفسكم أي رسول عظيم من جنسكم ومن نسبكم ، عربي قرشي مثلكم ، وهذا مدح لنسب النَّبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها ، وقرأ عبد الله المكي : « من أَنْفَسِكُم » بفتح الفاء من النفاسة ، أي من أشرفكم وأفضلكم .

واختياره ، ولم تقف عند إنزال العقيدة الصحيحة ، والأحكام الشرعية ، بل كانت تمتد عن طريق الوحي اللفظي بالقرآن ، والوحي المعنوي بالسنة ، إلى رسم الخط السديد للدعوة والتعليم ، والتربية والتوجيه ، وكان الوحي السماوي يحدِّد للرسول ﷺ معالم الطريق في معاملة الناس ، ويكشف له عن خبايا النفس الإنسانية وطرق معالجتها ، ومواطن الخير فيها ، ويسلِّط الأضواء على نوازع الشر في البشر ، والمنزلقات الكبيرة والعميقة ، أو البسيطة والسطحية التي قد يَتَرَدَّى فيها الإنسان وكيف يُمكن إنقاذه منها ، كما يحذِّر الوحي السماوي من شِراك الشيطان ، وينبه إلى شباكه التي يُحيكها ليعترض الإنسان ، ويزين له الأمور على غير حقيقتها ، ليضلَّه فكرياً ويحرفه عن الصراط السوي سلوكياً .

ومن هنا امتازت التربية النبوية بأهم خصائصها وسماتها ، وهي أنها تعتمد على منهج إلهي رباني ، وضعه رب العالمين ، الذي يعلم من خلق ، والذي أراد لخليفته في الأرض أن يقوم بهذه الخلافة الرشيدة ، وأراد للإسلام أن يكون آخر الرسالات السماوية ، وخاتمة الوحي الإلهي ، وجعله عاماً للبشرية ، فأكمل الله به النبوات ، وتوَّج

الرسالات ، وأنزل فيه كل ما يصلح للفرد والمجتمع والأمم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأوحى الله تعالى بهذا المنهج إلى محمد ﷺ ، وكلفه أن يسير على منواله ، ويتبع خطاه ، دون أن يكلِّفه بالنتائج ، فقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] ، وقام الرسول ﷺ بواجب الدعوة والتبليغ ، والهداية والتبشير ، والتحذير والإنذار ، فاصطدم بالعقول المتحجِّرة ، والأفكار المتكلِّسة ، والتقاليد البالية ، والنفوس المريضة ، فضاق صدره ، وشق عليه الأمر ، فكشف الله تعالى له السر ، وبين له الحقيقة ، وأضاء له سبل الدعوة الطويلة الشائكة ، فقال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] ، وقال عزوجل : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر : ٤١] ، وقال عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم

بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس : ١٠٨ـ١٠٩] .

وسار رسول الله ﷺ على هذا المنهج الرباني ، وبلّغ رسالة ربه ، وأدّى الأمانة التي حملها ، وتحققت النتائج العظيمة في ذلك[1] .

وكان الشعار النظري والعملي لهذا النهج التربوي الرباني هو قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وتضمن القرآن الكريم ، وهو كلام الله تعالى الموحى بلفظه ومعناه ، منهجاً تربوياً كاملاً في ثناياه ، وكل آية من آياته تقيم لبنة في هذا البناء والمنهج ، سواء كانت الآيات

---

(١) انظر الكتب التي ظهرت في هذا الخصوص : منهج القرآن في التربية ، محمد شديد ، منهج تربوي فريد في القرآن ، للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، معجزة الإسلام التربوية ، الدكتور محمود السيّد ، الرسول العربي المربي ، الدكتور عبد الحميد الهاشمي .

تتعلق بالإنسان أو بالكون أو بالحياة ، وسواء وردت في الإيمان بالله تعالى وصفاته وأسمائه أو في سير الأنبياء والمرسلين ، أو في أحكام الشرائع السالفة ، أو في بقية جوانب العقيدة ، أو في العبادة والأخلاق أو التشريع ، وسواء في ذلك الآيات التي وردت في مخاطبة الرسول وأمته ، أو ما تحدثت عن الأمم الأخرى ، أو القصص الرمزية أو الحقيقية في التاريخ ، توجيهاً لرسول الله ﷺ ، وتثبيتاً لقلبه ، وإرشاداً له في الدعوة والتربية ، أو تعليماً لأمته ، وبياناً لسنة الله في خلقه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

ونكتفي بالإشارة إلى بعض المبادىء التربوية التي جاءت في القرآن الكريم لتبين منهجه في التربية بشكل صريح وواضح ومباشر .

قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

والحكمة هي وضع الشيء في محله وسيلة وغاية ، وهو

لفظة جامعة مانعة ، وفسرها ابن جرير الطبري بأنها : « ما أنزل الله من الكتاب والسنة »[1] ، فالدعوة بالحكمة ، والتربية بالموعظة الحسنة ، والجدال والنقاش والاقتناع بالوسيلة التي هي أحسن ، هو أسلوب القرآن ، وهو الطريق الأقوم في التربية ، وهو الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ، وهذا ما رسمه رب العالمين ، ونفذه سيّد المرسلين ، المعلم الأول ، المأمور بالتبليغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

وبيَّن القرآن الكريم مبدأ تربوياً آخر في رعاية المتعلمين الذين يقبلون على الدعوة ، وبيَّن حاجتهم إلى الرسول المعلم بينهم ، والفائدة المتوخاة من اللقاء معهم ، فقال تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨] .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى بمناسبة قصة وقعت مع الرسول ﷺ أثناء قيامه بالدعوة إلى رؤساء القوم وزعمائهم ،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٩٤ .

مع حرصه على إيمانهم ، وطمعه في الثمار الكبيرة من وراء دخولهم بالإسلام ، ويحاول أن يراعي مشاعرهم المتكبرة ، ونفوسهم المتعالية ، ونظرتهم الطبقية ، وأنفتهم من الاجتماع بالفقراء ، فيقدم عليه ـ في هذه الأثناء ـ عبد الله بن أم مكتوم الكفيف الفقير ، ذو الثياب الرثة ، والحالة الكئيبة ، فيضيق صدر الرسول ﷺ ذرعاً بقدومه ، خشية أن يفسد عليه ما يسعى إليه ، ويطمع به ، فيأتي العتاب الرباني للرسول ، مبيناً أن الهداية بيد رب العالمين ، وأن النفع والخير لا يتوقف على إيمان هؤلاء المتغطرسين ، المتكبرين ، وأن أمراضهم النفسية قاتلة ، فلا ينفع معها علاج أو دواء ، وأن التبر يمكن تنقيته حتى يجلو الذهب براقاً نافعاً ، فقال تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1] [عبس : ١ـ١٢] .

وهذا يدل على أن المؤمن الفقير خير من الكافر الغني ،

---

(١) أسباب النزول ، للواحدي ، ص ٣٦٥ .

وأن النظر إلى المؤمن أولى ، وإن كان فقيراً ، فهو أولى وأصلح من الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم ، وإن كان ذلك نوعاً من المصلحة ، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يقول : « مرحباً بمن عاتبني فيه ربي » ، ويبسط رداءه له ، وقد استخلفه على المدينة مرتين .

وسلك رسول الله ﷺ الطريق الرباني في الدعوة والتربية ، وترسَّم خُطا المنهج القرآني في التعليم ، وأقام المبادىء القويمة ، وشرع الطرق المحكمة في معاملة الصحابة حتى حقق النتائج الكبيرة ، وخلَّد السيرة العطرة ، والمنهج التربوي الرشيد .

وهذا المنهج الرباني في التربية النبوية يعطي المسلم أصالة ذاتية تربوية ، تتفق مع التصور الإسلامي الكامل عن الخالق والإنسان والكون والحياة ، وتمنح المسلم استقلالاً فكرياً ، وشخصية مستقلة ، وتميُّزاً كاملاً ، فلا يرتبط إلا بالله ، ولا يُعلِّق أمله وقلبه وفكره وعقله إلا بربه ، ولا يبغي في حياته وسلوكه إلا مرضاة الله تعالى ، وهذا المنهج يحمي المسلم من التبعية والذل ، ويجنبه مزالق الاستعمار والاستعباد ، ويكسبه المناعة من الذوبان في بَوْتقات الأعداء الذين يُريدون

صهره من الداخل بأسلوب استعماري فكري تربوي عميل ودخيل .

وهاتان الخاصتان من خصائص التربية النبوية الخاصة والذاتية لرسول الله ﷺ ، ولكن الخاصيّة الأولى لا يشاركه فيها أحد بعده ، ولا يمكن لعالم أن يتربى أو يتخرج من المدرسة الإلهية التي خصَّصها الله لأنبيائه ورسله وقد انقطع الوحي ، وختمت الرسالات ، وانتهت النبوات ، وكان محمد خاتم النبيين والمصطفين الأخيار ، أما الخاصيَّة الثانية فكانت تنزل على الرسول المعلم الأول من السماء ، وينحصر اللقاء الإلهي به ، ولكن رسول الله ﷺ خلَّفه لمن بعده ، واختطه للمسلمين ، وكان خاصيَّة من خصائص التربية النبوية ، فصار خاصيَّة للتربية الإسلامية عامة ، ينهل منه المسلمون ، ويهتدي بهداه المعلمون ، ويقتبس منه المصلحون ، ويعكف عليه العلماء ، ويتطلع إليه المربون .

* * *